الصوم عبادة لله وتصحيح للاجتماع

لفضيلة الأستاذ مصطفى الصاوى

امل فى تشريع الصوم واعتباره ركنا من أركان الاسلام آية واضحة على أن هذا الاسلام قد قصد إلى معنى سام كريم ، وأهدف الى غرض اجتماعى خطير ، فليس الصوم حرمان المكلف من الطعام والشراب وغيرهما فحسب و إلا كان التكليف به أشبه شىء بالمنت والتعسف ، وليس هو أيضا عبادة روحية قصد بها الحد من طغيان النفس وكبح شرتها . و إلا لما كان ركنا لهيكل هذا الدين . وليس تشريعه امتحانا للكلف ليرى هل يصبر أم يجزع فيعطى نفسه مناها . . ولا يحرمها ماتشتهى من متع ولذائذ .

ليس الصوم هذا ولا ذاك فقط — و إنما هو مع ماذكرنا تشريع يحقق معنى الأنسانية فى نفس الصائم ويجعله يلتمس أسباب الكمال البشرى إلى أقصى حد ممكن . فقد تبين به أن الاسلام وقد جاء على فترة من الرسل فرأى الناس منغمسين فى حمأة الرذيلة متمردين على الفضيلة ، قد أنكروا إنسانيتهم فتحللوا وتناجشوا وتباغضوا وتفرقوا قدائد هنا وهناك ، فلا تضاء فى الرأى ولا سداد فى القول . ولا رشاد فى العقل مما أدى بهم إلى التدهور عن معنى الانسانية السامى . فأراد أن يحول هذا التيار الجارف ، تيار التحلل والتخاذل ، وفقدان الوعى الاجتماعى إلى ناحية أخرى هى ناحية التعرف إلى الأنسانية والأخذ بمناهجها والعمل على إنهاضها وتوطيد دعائم التضامن الاجتماعى الذى لابد منه لسعادة البشرية . وذلك لايكون إلا بتكوين الأفراد وتهذيبها أولا . ثم بتهذيب الجماعات من طريق تهذيب الأفراد فاختط الطريق الأقرب إلى هذا الغرض السامى بتشريع الصوم .

فالصوم هو الذى يصقل الفرد ويهذبه ويقومه ويزرع فيه كل معانى الانسانية . . و إذا تم هذا فى الفرد فقد تم فى الجماعة ، و إذن يتهذب الجيل من أقرب الطرائق و بأيسر الوسائل .

و إذا كان الفقه الاسلامى يعرف الصوم بأنه الأمساك عن المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس فقط ، فذلك لأن مقام التعليم يقتضى الفقهاء أن يقولوا ذلك ، ولقد عرفه المتصوفة بأنه حبس النفس عن جميع لذائذها وصرف قوتها إلى تغذية الروح بالذكر والعبادة

والاستغفار ، وعلى كلتا الحالتين فهو رمز إلى تصحيح شخصية الفرد بجهاد النفس سواء كان بمقاومة دوافع شهوة البطن والفرج أو بمدافعة بواعث الهوى . فمتى ثبت باعث اليقين عند المكلف أمام باعث النفس والهوى فقد كملت شخصيته ، وهذا ما يرمى اليه الشرع الشريف بالتكليف بالصوم .

ولعل الباحث المدقق عن سر التشريع فى الصوم لا يلبث وهو فى أول الطريق أن تتكشف له الحقائق واضحة جلية :

فالخطوة الأولى الى تلك المرحلة — أنه تعليم للناس كيف يصبرون عن ألزم شىء لهم ، فيه حفظ حياتهم ومنه استمداد قوتهم وهو الطعام والشراب .

والخطوة الثانية تعويدهم ضبط المواعيد . والوفاء بالالتزامات والمواثيق . وذلك بتحرى الأزمان والدقة فى معرفة الأوقات ، فالمكلف بالصوم مكلف بمعرفة الزمن الذى يجب فيه الإمساك والوقت الذى يباح فيه الإفطار وهو طرفا النهار فلو أخل فى واحد منهما بطل صومه .

والخطوة الثالثة إحساس الصائمين بألم الجوع ولذع العطش ، وفى ذلك تذكير لهم بحالتهم كى يلجأوا إليه وليعرفوا عجزهم وحاجتهم فيعترفون بها ، ثم ليذكروا أولئك الفقراء واليائسين الذين لا يجدون ما يطعمون .

والخطوة الأولى تربى فى الصائم قوة الإرادة وعضاء العزيمة فلا يعدل عن قوله ولا يرجع عن رأيه ولا ينقض العهد والمواثيق وما أحوج الشعوب الى تربية أفرادها على هذا النظام .

والخطوة الثانية تغرس فى نفس الصائم التنبه والدقة فى ضبط المواعيد والوفاء بالعهود والالتزامات فى أوقاتها ، وفى هذا تكوين للشخصية الاجتماعية فى الفرد . وآثار ذلك انتشار الثقة بين الناس فى المعاملات وغيرها وفى ظلال تلك الثقة تتيسر الأمور وتستقر الحياة للناس .

والخطوة الثالثة تصقل النفس وترهف الأحاسيس وتدفع المكلف الى عبادة ربه باخلاص ويقين . وإلى إحسان المعاملة مع الناس وإلى الاتصاف بصفة الإيثار المحمودة ، وكفى ما الإيثار من فضل فى ربط الأواصر بين الناس وذيوع المحبة والوداد بين الأفراد والجماعات .

وفى ذلك من عرفان الإنسان بما يجب عليه نحو أخيه الانسان ، وإذ ذاك ترى الناس متعاونين متحابين لا ييأس الفقير ولا يدهمه قنوط . لأنهم قد عرف أن قلب الإنسانية الرحيم قد هذبه الصوم وصقله هذا الامتحان .

ومتى كان المرء ذا مضاء فى العزيمة ، وقوة فى الإرادة ، وتصميم وذا تحرٍ للأوقات ووفاء بالمواعيد والمواثيق والالتزامات ، وكان مرهف الشعور يعطف على الناس فقد تحققت فيه الصفات الكاملة .

ومعلوم أن الصوم يكلف به كل قادر عليه من الرجال والنساء عدا الصبيان والشيوخ والمرضى ومن فى حكم هؤلاء . فمعنى هذا أن كل أفراد الأمة ستتحقق فيهم تلك الصفات ، والأمة التى يكون أفرادها من هذا الطراز هى الأمة التى تستحق البقاء وتستأهل التكريم وهى الأمة التى تحظى بالزعامة ، وكذلك كانت أمة المسلمين وكذلك كان شأنها حتى ملكتها وعت كلمتها وارتفعت رايتها ، فذلك هو المعنى الذى يقصده الإسلام بتشريع الصوم وإيجابه واعتباره ركنا من أركان هيكل الإسلام العظيم ، ولقد تجلت حكمة الله فى عقوبة تارك الصوم بغير عذر وفى جزاء المعذور الذى لا يستطيع أداءه حيث جعلها القضاء مع الكفارة طورا والقضاء بلا كفارة طورا آخر والكفارة وحدها دون القضاء طورا فالقضاء ينال الصائم الثواب الذى فاته والكفارة تحمل الذى حصل بالإخلال بالصوم .

وعلى أى حال فالكفارة التى أتحدث عنها هى طعام أو لباس يقدمه من لم يصم للفقراء والمساكين .

فالمسافر أو المريض يفطران لهذا العذر ويقضيان القضاء فقط . والحامل أو المرضع إن خافت على نفسها أفطرت وعليها القضاء وإن خافت على ولدها فعليها مع القضاء الكفارة والشيخ الهرم يفطر ويطعم عن كل يوم مدا وهكذا . رأيت تشريعا أعم للإنسانية من هذا التشريع الذى يقوم الأفراد والجماعات ويكون منهم بيوت قوية غنية ويجعل جزاء المخالفة فيه تعويضا لا يرهق يقدم معونة للمحتاج من الناس .

ثم أرأيت تشريعا هو عبادة كبيرة وعليه مثوبة عظمى فى حين أنه علاج للإنسانية الكبيرة حين تفرط ، وهدى للبشرية المتهالكة حين تضل أو حين تخور ؟

أليس الصوم تصحيحا لتجارة الأفراد ، وتقويما للعادات وتمهيدا لمجد الأجيال على حين لا يضاع وهو وجيه أن يتأثر الناس بالمثل العليا التى يدعو الإسلام فروة مجدها .

وإذا قارنا بين الناس قبل تشريع الصوم وبعده لتحول لنا الفرق بين الحالتين ، فبالصوم يكف الناس ويرتدع المدفوع بشهوته عن الإحساس الحيوانى والجرى وراء الملذات ، وبالصوم امتدت رقعة الإسلام حتى بلغت أقصى حدودها ، فهو صوم وهيبة حركة تشريعه وجده فى آثاره فى الأفراد والجماعات والأمم ، فهنيئا لمن وفق إلى الصوم .

مصطفى السباعى

المدرس بالأزهر